

التربية من خلال الفن: تأملات في فكر هيربرت ريد

د. ماهر شفيق فريد *

الصلة بين علم التربية وسائر الأنساق المعرفية جانب مهم من جوانب هذا العلم ذاته. وممن ساهموا فيه بالرأى والمشورة الأديب الناقد الأدبي والفني الإنجليزي السير هيربرت ريد (١٨٩٣ - ١٩٦٨) وذلك في كتبه ومحاضراته ومقالاته وهي تشمل:

— التربية من خلال الفن (الناشر: فيروفيير، لندن ١٩٤٣ / كتب بانثيون: نيويورك، طبعة منقحة ١٩٥٨).

— التربية من أجل السلام (الناشر: سكربنرز، نيويورك ١٩٤٩).

— الثقافة والتربية في النظام العالمي: محاضرة (نيويورك، متحف الفن الحديث ١٩٤٨).

— الفن والتربية (ملبورن، تشيشير ١٩٦٤).

— افتداء الروبوت: مواجهتي مع التربية من خلال الفن (نيويورك، مطبعة ترايدانت ١٩٦٦).

— تربية بشر أحرار (لندن، مطبعة الحرية ١٩٤٤).

— التربية من خلال الفن، وهو فصل من كتابة المسمى «كتابات مختارة: شعراً ونقداً» (الناشر: فيير وفيير، لندن ١٩٦٣).

يرى ريد - الذي كان رئيساً لـ «جماعة التربية من خلال الفن» - أن الفن

(*) أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

روح تغزو المادة وأنه يربى الحساسية على الإدراك. الفن نمط من المعرفة قيمته للإنسان لا تقل عن قيمة الفلسفة أو العلم، ولأنه يتضمن قيمة شكلية وقيمة سيكولوجية وقيمة فلسفية فإنه وثيق الصلة بتربية متلقيه. إن الإدراك الحسى العميق للشكل واحد من الإمكانيات القابلة لافتداء الجنس البشرى وتخليصه من التوترات والأعصاب. ويسوق ريد فى كتابه "الفن اليوم" (ترجمة محمد فتحى وجرجس عبده، دار المعارف ١٩٨١، ص ١٩) رأى الفيلسوف الألمانى شلر فى رسائله المسماة "عن التربية الجمالية للإنسان" (لها ترجمة عربية بقلم د. وفاء إبراهيم، محبذا موقف شلر الذى يرى أن الفن ينبغى أن يكون أساسا للتربية، وأن تنمية الحس الجمالى هى الأساس الجوهرى لتنمية العقل والأخلاق.

يسعى ريد - كما يقول الناقد الأمريكى آلن تيت فى مقدمته لكتاب ريد "كتابات مختارة" المذكور أعلاه - إلى إقامة مركب من الحدس الرومانطيقى والنظام الذهنى. ويؤكد ناقد آخر - كنجزلى ويدمر - أن ريد إذ ثار على الإسراف فى الميكنة (متابعا فى ذلك) سكن ووليم موريس من نقاد العصر الفيكتورى فى إنجلترا القرن التاسع عشر) وعلى الوظيفية التكنوقراطية الصارمة ذهب إلى أن كل تعليم ينبغى أن يتركز على اكتساب إحساس جمالى عميق بالخبرة. إن هذا أمر أساسى باعتباره معرفة تكفكف من غلواء العلم، بل هو إسباغ للطابع الإنسانى على الفوضى التكنولوجية. ينبغى إدماج العمل والفن معا، فإن كل امرئ بحاجة إلى العيش العضوى جماليا (انظر مادة "هربرت ريد" بقلم كنجزلى ويدمر فى كتاب "مفكرو القرن العشرين" الطبعة الثانية، تحرير رونالد تيرنر، مطبعة سانت جيمز ١٩٨٧).

ويقول ناقد ثالث - فرانسيس برى فى كتابه عن ريد (الناشر : لونجمانز ١٩٥٣) : "من المحقق أن اتجاه كتاب " التربية من خلال الفن " بأكمله ينحو إلى الدعوة إلى جعل الخيال والمراكز الجمالية أساس التعليم فى كل مراحلها، بدلا من

توكيد الملكات المنطقية ومساعدة الذاكرة" (ص ١١)، لقد سعى ريد إلى إحداث ثورة في أهداف التربية ومناهجها وذلك في كتبه "معنى الفن" (الناشر : فيبر وفيبر، لندن ١٩٣١، وله ترجمة بقلم سامى خشبة، ومراجعة مصطفى حبيب، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨) و"الفن الآن" (الناشر : فيبر وفيبر، لندن ١٩٣١، سبق ذكر ترجمته العربية تحت عنوان "الفن اليوم").

وفي فصل من كتابه المسمى "فلسفة الفن في الفكر المعاصر" لأستاذ الفلسفة الراحل الدكتور زكريا إبراهيم (مكتبة مصر) يتحدث المؤلف عن فلسفة الفن عند ريد تحت عنوان "الفن شكل ومعرفة" فيقول (ومعذرة لطول المقتطف فهو لا يقبل الاجتزاء): "إننا قد اعتدنا توجيه كل اهتمامنا إلى النشاط الذهني القائم على اللغة الرمزية أو العلامات غير المنطوقة [لغة الفن]. ومن هنا فإننا نتوهم أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق التواصل بين الناس إنما هي الوسيلة اللغوية، وأن المعرفة الوحيدة التي لا بد لنا من العمل على تحصيلها إنما هي المعرفة القائمة على بعض العلامات المنطقية. وهذا هو السبب في أننا ننظر إلى أولئك الذين يشغلون أنفسهم بالأساليب غير اللفظية من الفهم والمعرفة على أنهم طائفة شاذة من الناس لا تفيده البشرية كثيراً من وراء محاولاتهم العقيمة في سبيل التعبير عن المعاني والدلالات بلغة الأشكال والألوان والأحداث وقد انعكس هذا الاتجاه على أساليبنا التربوية فأصبحنا ننمى في نفوس النشء القدرة على تكوين التصورات ونشجعهم على القيام بشتى عمليات التجريد دون أن نحفل كثيراً بتنمية قدرتهم على الإدراك الحسى أو تشجيع ميولهم الإدراكية على التعبير عن الحقيقة الحسية بلغة الرموز غير المنطوقة" (ص ٣٤٢).

والنتيجة التى يتأدى إليها ريد مما سلف هي أننا، كما نحتاج إلى تربية الملكات العقلية، نحتاج إلى تربية الحواس بصرياً وسمعيّاً وذوقياً ولمسياً وشمياً، لا بل إن الإدراك الحسى الصحيح هو أساس التفكير الصحيح، وذلك لكون الحواس

هى بوابة الفهم وأساس كل عملية عقلية. وفى فصله عن "التربية من خلال الفن" (١٩٦٣) يحدد ريد خمسة أهداف للتربية الفنية كلها، فى نظره، وسائل لتحقيق الذات والتواصل مع الآخرين. وهذه الأهداف هى :

- (١) المحافظة على الشدة الطبيعية لكل أنماط الإدراك الحسى والإحساس.
- (٢) التنسيق بين الأنماط المتنوعة للإدراك الحسى والإحساس من حيث علاقتها بالبيئة.
- (٣) التعبير عن المشاعر فى شكل قابل للتوصيل.
- (٤) التعبير عن الأعماق الغائصة للشخصية سواء كانت لا شعوراً فردياً فرويدياً أو لا شعوراً جمعياً يونجياً.
- (٥) تعليم النشء كيف يعبرون عن أفكارهم من خلال شكل مطلوب او حرف بناءة كالهندسة أو المنطق.

ليس الفن نظاماً تحكيمياً يتعين إخضاع الطفل له ، وإنما هو نظام كامن فى ردود أفعالنا إزاء النظام الطبيعى. وفى التمشى مع هذا النظام يجد الطفل حريته الكاملة. والفن أيضاً - وتأثيره التربوى نابع إلى حد كبير من هذه الحقيقة - عملية اجتماعية، فهو ليس توصيلياً فحسب، بمعنى أنه موجه إلى جمهور، وإنما هو أيضاً نشاط جماعى بمعنى أنه يمكن أن يكون وسيلة لبلوغ أهداف مشتركة.

إن للتربية، فى رأى ريد، وظيفة مزدوجة : فهى - من ناحية- تنمية للتعبير الحسى والتوصيل لدى الفرد، وهى - من ناحية أخرى - تحقيق للتفاهم بين إنسان وإنسان. ولا يمكن تنمية الشخصية تنمية كاملة بدون أن تسقط خبرتها الذاتية على أشكال عينية، وأن يتعاضد حظها من البراعة والدقة فى بلوغ هذا الهدف.

إن النفس الإنسانية، كما ندرك على نحو متزايد مع تقدم العلوم العقلية، تكيف رهيف بين الإحساس والشعور والحدس والفكر. ورغم أننا ندعو الإنسان حيواناً

عاقلاً، لأنه الوحيد بين الكائنات الحية الذى يملك القدرة على تكوين تصورات وعلى ربط خبراته الجديدة بتحريدات كلية، فإن حاجاته الحقيقية - رغم ذلك - إنما هى موجهة إلى الأنشطة الإبداعية. لا ينبغى أن نقيم المكونات الغريزية والوجدانية فى الشخصية الإنسانية، فما من طائر يستطيع التحليق بجناح واحد فقط.

إن التوفيق بين الحس والعقل، بين الخيال والتجريد، لا يتسنى إلا بطريقة موضوعية أو خلاقية. فقط من طريق إسقاط جانبى طبيعتنا على بناء عينيّ يمكن لنا أن نحقق عملية التوفيق وأن نتأملها، وهذه، على وجه الدقة، هى وظيفة العمل الفنى، وقد ظلت كذلك عبر القرون. فالعمل الفنى هو رمز التصالح بين مختلف الملكات العقلية والوجدانية. وفى المصنوع الفنى العيني تخضع دوافعنا للنظام الجمالى - نظام الإيقاع والتناسب - ويغتذى العقل على الطاقات الحيوانية الحيوية.

وعند هذا الموضع من بحثه يشير ريد إلى رسائل شيللر " فى التربية الجمالية للإنسان" واصفاً إياها بأنها أعمق بحث فى التربية خطه قلم إنسان . والإهمال الذى وقعت هذه الرسائل فريسة له فى عصرنا لا تفسير له إلا أنها ظهرت فى لحظة تاريخية غير مواتية (عام ١٧٩٥) هى لحظة دخول أوروبا مرحلة التوسع الصناعى والاختراعات الميكانيكية التى تتطلب من المديرين والتنفيذيين نوعاً من التربية يضاد، على وجه الدقة، ذلك الذى دعا إليه شيللر. إن مفهوم "الشكل الحى"، الذى يقع من فلسفة شيللر فى الصميم، مضاد للأشكال الميتة لإنتاج الآلات والتنظيم الصناعى، مما يستحيل معه أن يوصى المرء المبشرين بالريح المادى، حيث العمل البشرى مجرد واحد من العوامل الاقتصادية الداخلة فى عملية الإنتاج، بتتمة "غريزة اللعب" على نحو ما يوصى شيللر. بل إن أقطاب الصناعة المستثمرين فى القرن التاسع عشر، وحتى المصلحين التربويين أنفسهم، لابد أنهم قد نظروا إلى فيلسوف يدعوهم، فى رسائله عن التربية، إلى الإقرار بأن "الإنسان لا يلعب إلا عندما يكون إنساناً بأتم معانى الكلمة، ولا يكون إنساناً بصورة كاملة إلا وهو

يلعب"، نظرهم إلى مجنون ...

كذلك يؤكد ريد، مستعيناً بإرنست كاسيرر وسوزان لانجر، وظيفة الرموز في الحياة العقلية والاجتماعية للإنسان، وهي وظيفة جنحت أساليب التربية الحديثة إلى تجاهلها بدرجة كبيرة مما أدى إلى إفقار الثقافة. لم يكن توكيد شيللر لغريزة اللعب تحكيمياً وإنما كان نابعاً من إدراكه أن هذه الغريزة هي الوجه النشط لكل خيال، ومن ثم لكل نشاط رمزي ومجازي. ومن خلال هذه الغريزة يمكن التوسط بين عالم الخبرة الحسية وعالم الأشكال، ومن ثم يمكن توفير أساس لكل خطاب رمزي - لا في مجال الفن فحسب، وإنما في مجالات اللغة والأمطورة والفلسفة والعلم.

لقد بين ريد - مستخدماً ثقافته الأدبية واطلاعه الواسع على الفن التشكيلي تصويراً ونحتاً - أن النقلة من أحد عصور الفن إلى عصر آخر، ومن فنان إلى آخر، ومن مدرسة فنية إلى أخرى تدريب ذهني وروحي يقع من عملية تربية النشء في الصميم إذ هو يعود الناشئ - الرجل والمرأة الناضجين فيما بعد - على رؤية الأمور من منظورات مختلفة، ويؤكد التنوع البشري الخلاق، وينأى بصاحبه عن التعصب لاتجاه بعينه، ويزيد الروح رحابة بل يزداد الإنسان إنسانية لأنه يوقفه على القواسم المشتركة بين مختلف الحضارات، شرقية وغربية، قديمة وحديثة، وبذلك يقاوم نزعات الاستعلاء العنصري، والشعور بالتفوق على سائر الأجناس، والشوفينية ضيقة الأفق وكلها - كما أثبتت تجارب أوروبا مع النازية والفاشية وسائر النظم الشمولية - عوامل تخريب مدمرة للحضارة ولروح الإنسان.